

انہیست کویت

obeykandi.com

أوجست كومت

(١٧٩٨-١٧٥٧)

ينعقد إجماع مؤرخي الفلسفة على أن «أوجست كومت» *Auguste Comte* هو الذى أرسى دعائم فلسفة ذات شأن عظيم فى المعرفة ، تلك هى الفلسفة الوضعية . ويلتمس «أوجست كومت» فى الوضعية أساساً متيناً لبناء اجتماعى متماسك .

وتصطدم فلسفة كومت فى عنف مع فلسفة هيغل (١) ، فقد كان «كومت» يمتك كل تأمل ميتافيزيقى (٢) أياً كان لونه . فقد درس كومت العلوم الطبيعية وكان على بينة ودراية بما حققته من نجاح وما أصابته من توفيق . وارتأى أن الفائدة التى جناها الناس ، عامتهم وخاصتهم على حد سواء ، من ثمرة الدراسات العلمية فائدة عظيمة فى مختلف ميادين الحياة ، بينما الفلسفة المثالية وما تنطوى عليه من تفكير مطلق تتعالى على الناس وتناهى عن الحياة العملية .

إن أهداف العلم فى نظر «كومت» ينبغى أن تكون حقاً مشاعاً

(١) كان هم (هيغل *Hegel*) الأول متجهما الى التوفيق بين الذات والموضوع اللذين فرق بينهما (كانت) ، والذين أسرف فى حل مشكلاتهما كل من (فشه) و (شلنج) إذ ألغى الأول الموضوع فكان ذاتياً متطرفاً ، ونفى الثاني على الذات فكان موضوعياً متفالياً . أما (هيغل) فوحد بين المنصرين فى وحدة عليا هى (المطلق)

(٢) أنظر الدرس الأول من كتاب (كومت) (دروس فى الفلسفة الوضعية) . ناقش (الرد على الوضعيين) فى إنكار الميافيزيقا ، ص ٤٨ — ٥١ من كتاب (محاولات فلسفية) للاستاذ الدكتور عثمان أمين . مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٥٢

للناس جميعاً ، وغرض العلم هو البحث عن المعرفة التي تعين الناس على أن يحيا حياة سليمة سعيدة . فالعلم ينظم المعرفة ، ويزودنا بالقدرة على التنبؤ بمصيرنا في المستقبل ونيكنا من أن نتحكم في الطبيعة ونسخر قواها لخدمة التقدم البشرى وتحقيق سعادة البشر

ويرى « كومت » أننا لا ينبغي أن نقصر جهودنا على الرياضيات والعلوم الطبيعية فحسب ، بل يحمل بنا أن نبادر بتطبيق المنهج العلمى على مجالات أوسع ونبسطة على ميادين الحياة العامة ، فنصل بذلك إلى تنمية التراث العلمى ، وتهيأ لنا أن ننظم أوضاع حياتنا فى المجتمع على أسس مدروسة . إذا تحقق لنا ذلك وأتيح لنا أن نزن تقديرنا للظواهر الاجتماعية والأخلاقية بنفس الميزان الذى نزن به تقديرنا للأحداث العلمية ، أعنى أن تتبع المنهج العلمى فى المجالين ، إذا أتيح لنا ذلك فلسوف يصاحبنا التوفيق فى بناء فلسفة وضعية للحياة ، تلهم البشر معتقداتهم وتهديهم فى سلوكهم وتضع لهم قواعد راسخة لأخلاقهم .

نحن نفتقر من ثم إلى علم للمساواة الاجتماعى نحله ثقتنا ونختصه بيقيننا ، هذا هو مثلنا الأعلى ، وهو المثل الذى يابهننا فى كل عصر وزمان . وهذه هى بداية علم الاجتماع الذى إختصر فى أذهان كثير من المؤرخين وعلى رأسهم ابن خلدون ، وتبلور فى تلك الجهود الجبارة التى بذلها « كومت » لتحقيق الأمل فى دراسة علمية للمجتمع يمكن على ضوءها أن يعمل العاملون على تقدم الإنسان ورفاهيته وسعادته .

إن المطلق (الهيكل) يخلق فى أجواز الميتافيزيقا فتسكتفه سحب وغيوم لا سبيل إلى تبديدها . وهذا الجدل *Dialectique* الذى يدعو إليه « هيكل »

أشبهه - في نظر كومت - بألعاب الحواة تُفري الناس وتجذبهم فيقبلون عليها بينما بطونهم تئن من الفراع ؛ فما الذي يسمى إليه العلم إذن ؟ .

تتبنى الوضعية نظرية « هيوم » (١) فتسعى بجانب كل تفكير أولي *à priori* ضروري *nécessaire* لا يقع في نطاق التجربة ولا تدركه الحواس . إن الكيفيات الأولى *primary qualities* عند لوك (٢) والنومين *Noumènes* أو الأشياء في ذاتها عند « كانت » (٣) ، والمطلق عند « هيجل » وكل مايجرى على هذا النسق فهو ضرب من الميتافيزيقا ، إذ أنه يتخطى التجربة التي تزودنا وحدها بكل ما يمكن أن نستوثق منه لأنه وضعي . بيد أن « هيوم » ينتهي كما رأينا (٤) إلى نتيجة شكية معتدلة أو إلى احتمالية ، فوقفه من ثم موقف يكاد يكون سلبياً . أما « كومت » فقد مضى في الشوط إلى نهايته ، وتمسكه الحماسي للمنهج العلمي فأمن بشمرات التجارب العلمية إيماناً عميقاً ؛ فلاريب عنده في أن العلم قد انعقد له لواء النصر ، وتوصل إلى نتائج إيجابية وضعية فعالة ، أعنى ليست سلبية . فكلمة وضعي *positif* في نظر كومت تحمل معنى مزدوجاً ، فهي تجمع معاً بين الإيجابية واليقين . والوضعية كما ذكرنا تنبذ كل ما يخرج عن نطاق التجربة وتعهده لوناً من الميتافيزيقا لا يؤمن جانبه ، والميتافيزيقا سلبية يتزعزع فيها اليقين . والوضعية تعقد آمالها على العلم ، فالعلم هو الذي يجلب لنا نتائج تنفعنا في الحياة العملية .

(١) راجع كتابنا عن فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد القاهرة ١٩٥٦

(٢) ص ٧١ - ٧٥ من كتاب « المعرفة »

(٣) ص ٨٧ من هذا الكتاب .

(٤) ص ٧٨ - ٨٢ نفس المصدر . أنظر كذلك كتابنا (فلسفة هيوم) .

وقد أخذت الوضعية على عاتقها مهمة الانتفاع بما في التجارب من ثمرات تتخطى مجال الانطباعات الحسية . فهمة العلم ليست قاصرة فحسب على تقصى الوقائع وتسكديسها ؛ وتقدم العلم ليس مرهوناً فحسب باتساع مجال المشاهدة ؛ إن العلم يتولى إلى جانب هذا كله استخلاص القوانين من مشاهدة الظواهر ^(١) . بيد أن هذه القوانين لا يمكن أن تعد متحركة في سلوك العالم الحسى ، فهى ليست عللاً للأشياء ، ذلك لأننا لو اعتبرناها عللاً لكان فى موقفنا هذا تفسير ميتافيزيقى . فالقوانين الطبيعية ليست فى الواقع إلا أوصافاً للطريقة التى تسلكها الظواهر . فليست القوانين تفسيراً للسبب الذى من أجله تسلك الظواهر مسلكاً معيناً دون آخر ؛ فنحن لا نعلم هذا السبب ؛ لأن علل الأشياء لا تقع تحت حواسنا . ومن هنا نلمس مدى التشابه العميق بين موقف الوضعية وموقف هيوم ^(٢) بإزاء قانون العلية . فليس ثمة يقين تام نستند إليه فى التسليم بالعلية . والقوانين العلمية التى هى أقرب فى طبيعتها إلى أن تكون قوانين وصفية منها إلى قوانين تفسيرية ، يمكننا أن نذنبها فى التنبؤ بالمستقبل طالما كنا نفترض أن تجارب المستقبل تشبه تجارب الماضى .

عند هذه النقطة يسلم « كومت » باتساق الطبيعة *uniformité de la nature* ، ولعل فى التسليم بهذا الاتساق إنسياقا منه إلى مجال الميتافيزيقا

(١) أنظر ص ٥٥ من :

Bachelard : Etude sur l' évolution d'un problème physique.

الفصل الخامس عن « أوجست كومت » و « فورييه » .

(٢) ص ٨٥ - ١٠٠ من كتاب فلسفة هيوم .

الذى يحرص على اجتنابه من البداية . بيد أن موقفه من هذا الاتساق ليس موقفاً قطعياً *dogmatique* ؛ فهو يذهب إلى أن القوانين ليست مطلقة بالضرورة بمعنى أن الضرورة المتمثلة فيها ليست ضرورة صادقة صدقاً كلياً . وإقامة قوانين مطلقة نشق من انطباقها وصدقها على جميع الأشياء في كل زمان ومكان ، يتطلب مشاهدة علمية كاملة تحيط بجميع الظواهر أياً كانت في الماضي والحاضر والمستقبل ؛ في جميع جوانب العالم . وهذه الإحاطة تستحيل علينا طالما كانت المشاهدة العلمية محدودة بقدر بسيط في المكان والزمان وبالتالي فليس في الوسع الوصول إلى خارج دائرة الملاحظة العلمية .

أضف إلى هذا أن التفكير العلمي تفكير نسبي لا ارتباطه بتكوين الإنسان العضوى . وعلى ذلك نرى أن « كومت » يسلم بأن القوانين مهما بلغت في دقتها ، لا تعدو أن تكون قوانين تقريبية . ومهما يكن من أمر فالقوانين العلمية خير من « مطلق » *absolu* لا يسعنا الوصول إليه . ذلك أنه على الرغم من كون هذه القوانين نسبية أو تقريبية فإنها قد أسدت ، ولا زالت تسد ، للجنس البشرى أجل الخدمات .

هذا موجز لموقف الوضعية من المعرفة ؛ وتكتمل معالم هذه الصورة حين نلج بطبيعة القانون الجوهري الذى يستند إليه « كومت » في مذهبه كله ، وأعني به قانون المراحل الثلاث . ففي كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية » *Cours de Philosophie Positive* « نراه يقترب شيئاً من معنى الفلسفة الوضعية حين يتوج أبحاثه بقانون المراحل

الثلاث . ويعد هذا القانون ثمرة طيبة لتطبيق المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية . ومضمون هذا القانون، الذى يمكننا أن نتصور فى ضوءه تطور الحضارة والتراث البشرى، أن كل فرع من فروع المعرفة البشرية يحتاز مراحل ثلاثاً : المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، وأخيراً المرحلة الوضعية . وفى المرحلة الأولى يبحث الإنسان عن علل غائية ، وفى المرحلة الثانية عن قوى مجردة ، وفى المرحلة الثالثة عن القوانين الصحيحة . ولكل مرحلة أوج تصل إليه ؛ فالله فى قمة المرحلة الأولى ، والطبيعة فى قمة المرحلة الثانية والقانون الكلى فى قمة المرحلة الثالثة . وثمة نمطان من الحقائق تشهد بصحة هذا القانون . فمن ناحية يظهرنا العلم على أنه قد مر بهذه المراحل كلها ، ونرى من ناحية أخرى أن تطور الفرد يلخص تطور الجنس . فالمرحلة الدينية تمثل طفولة الجنس البشرى حيث نلجس نزعة إلى تشخيص الأشياء والقوى ؛ والمعرفة فى هذه المرحلة تأتى عن طريق المعجزات وما يكشف عنه السحر وما تنم عليه قراءة النجوم ، ومن سلطان الآلهة الذين يملكون أزمة الأمور ويسخرون قوى الطبيعة على ما يشاءون . أما المرحلة الميتافيزيقية فتتمثل شباب الجنس البشرى حين يعتمد الناس إلى الاعتماد على تأملهم الشخصى بدلا من استنادهم إلى قوى عليا، وتسليمهم بقدره فائقة، وهذا ما نلمسه فى تفكير اليونان الفلاسفى وفى هذه المرحلة الميتافيزيقية نجد الإنسان يستعيز عن الآلهة بالمبادئ الميتافيزيقية ؛ مثل ذلك فكرة أفلاطون عن الله ، وأرسطو عن المحرك الأول ، وفكرة المطلق عند هيجل . وحين تبلغ الإنسانية ريشدها وتستكمل عناصر رجولتها، إن صحَّ هذا التعبير ، ويتم لها الإدراك

السليم والفهم الصحيح تصل إلى المرحلة الوضعية . وفي هذه المرحلة يتخلى الإنسان عن بحثه عن محركات أولى ، وعن ألوان المطلق ، وأنماط الجواهر ، ويُقلع عن كل تأمل يفلت من يدي التجربة ويمرّق من مجال الإحساس ؛ ثمّ يحدّد يحصر الإنسان أبحاثه ودراساته في مجال التجارب التي تخضع للنهج العلمي فتتم له بذلك معرفة وضعية علمية .

هذا عرض مجمل لموقف « كومت » من المعرفة ، وقد كان له دون ما ريب أثر كبير في وضع أسس المذهب الوضعي كما ألمعنا . ولا شك أن للوضعية أهميتها وبالغ قيمتها في تعزيز الإيمان بقيمة العلم ، وحث جهود البشر على استكناه أسرار الطبيعة ، واجتثاث النزعات الدينية والأسطورية المتسلطة على أذهان الكثيرين . وكانت الوضعية إيداناً بحملة عنيفة على الميتافيزيقا ، وقد رأينا أن الوضعية تستند إلى الكثير من آراء هيوم ولكنها تخطت « هيوم » وانصب اهتمامها على التقدم العلمي والاجتماعي معاً . وقد كان للوضعية نفوذ عظيم على كثير من تيارات الفكر الحديث في أوروبا وفي أمريكا بوجه خاص . (١)

(١) أنظر الفصل ذلك في ص ٦٩٧ . ن :

Daniel. S. Robinson : An Anthology of Modern Philosophy
„New York. 1931. „